المشرق

من بيروت الى الهند

الاب لويس شيخو اليسوعي

هذه ست عشرة سنة مرّت علينا منذ تجشمنا اتعاب سفر طويل باشرناه في سبيل العلم قطعنا به انحاء الجزيرة ثمّ العراق فالعجم فالهند وعطفنا راجعين على طريق عدن فسويس. وقد كان اصحابنا غير مرّة طلبوا الينا ان ندوّن اخبار رحلتنا فيقتبسوا شيئاً من فوائدها الّا انّ الضغط الزائد على المطبوعات كان في العصر الحميدي يمنعنا عن نشرها وقد جرى لنا فيها امور لا توافق على طبعها المراقبة الرسميّة فاليوم اذ تلاشت هذه الحواجز لم نعد نرى موجباً لكفّ القلم فلا بأس من روايتها

١ من بيروت الى حلب

معلوم انّ الرهبانيّة اليسوعية حيثما حلّت مع دفاعها عن الدين القويم تنهج طريقاً مهيعاً للعلوم البشرية. فان مدارسها وكلّيّاتها ومطبوعاتها في كل الفنون ومراصدها الفلكيّة ومعاهدها العلميّة في الخافقين تشهد على حسن مساعيها التي اقرّ بها اعداؤها فضلاً عن الاصدقاء.

وما كانت رسالتنا في سوريّة لتحيد عن هذه الخطّة كما هو معروف. ومن جملة ما عُني بانشائه رؤساؤها في هذه الديار مطبعتنا الكاثوليكيّة التي مرّ عليها اليوم ستون سنة خدمت فيها بكل نشاط الدين والعلم وقد ابرزت في هذه المدة نيفاً وخمسمائة كتاب في معظم العلوم العصريّة عدّدنا قسماً منها في تاريخنا لفنّ الطباعة الشرقيّة (راجع المشرق ١٩٠٠ ج ٣ ص ٧٠٦ الخ)

على انَّ مطبعة كبيرة كهذه اشتهرت في الشرق والغرب معاً بمطبوعاتها العلميَّة لا تستطيع ان تحفظ مرتبتها العالية الَّا ان يكون لاصحابها مورد غزير يستقون منهُ فيواصلون اشغالهم دون ان تنقص عنهم الموادّ. ولهذه الغاية كان ارباب كليَّتنا انشأوا مكتبةً شرقيَّة واسعة جمعوا فيها اخصّ المطبوعات العربيَّة والسريانيَّة والعبرانيَّة والفارسيَّة والتركيَّة والقبطيَّة والحبشيَّة وقد نشروا تآليف في كل هذه اللغات يعرفها الشرقيون والمستشرقون

الَّا انَّ ما يزين المكاتب الكبيرة خصوصاً انَّما هو عدد مخطوطاتها ووفرة مآثرها العزيزة الوجود. وكانت مكتبتنا الشرقيَّة حريصة على جمع هذه المخطيات كأنَّما كانت تسنح الفرصة للوقوف على شيْ منها. بل اخذنا منذ السنة ١٨٨٠ نطوف في انحاء الجيل املًا نعثر على بعض هذه الآثار الخطيَّة وفي كل سنة في زمن العطلة الصيفيَّة كنَّا ننتقل في مدن الشام القريبة كطرابلس وصيداء ودمشق وحمص وحلب رجاء التقاط هذه الدُّرر الغالية الثمن فما كان ليخيب املنا فنعود بعد كل رحلة بعدد وافر من تلك الجواهر الفريدة

واذ قرأنا في رحل علماء الغرب انَّهم كانوا يتردَّدون خصوصاً الى بلاد الجزيرة والعراق فيعودون الى مواطنهم بعد ان اقتنوا عدداً دثرًا من المخطوطات الشرقيَّة اثارت اخبارهم الرغبة فينا لأن نتوغَّل على مثالهم تلك الجهات ولنا عليهم فضل الوطنيَّة ومعرفة البلاد والعادات واللغة فعرضنا الامر على رؤساء رسالتنا فلم نجد فيهم الَّا تنشيطاً على اتمام العمل غير انَّ اشغالاً مختلفة كانت تقضي علينا كل سنة بتأجيل ذلك السفر حتى جاء خريف سنة ١٨٩٥

وكان وقتئذٍ رئيساً على رسالتنا السوريَّة المرحوم الاب اسطفان كلاره فاتتنا منهُ ونحن في غزير للرياضة السنويَّة رسالةٌ اوعز بها الينا في ان نباشر رحلتنا في اقرب وقت وقد اخذت وهجات الصيف في الخمود

فما امكننا الَّا الاجابة الى تلك الدعوة فتحفَّزنا للسفر وبعد ثمانية ايام ركبنا باخرةً مسكوبيَّة نقلتنا الى طرابلس الشام اذ لم تكن السكك الحديديَّة قد امتدَّت بعد من الثغر الى البقاع الى جهات حلب. وكان خروجنا من بيروت في ١١ ايلول من السنة ١٨٩٥ في اصيل يوم الاربعاء.

وفي صباح اليوم التالي اقلتنا العربة من طرابلس الى حمص حيث قضينا يومين. وكان يوم السبت واقعاً فيه عيد الصليب فرأينا من تقوى اهل حمص الكاثوليك ما سرنا. وسمعنا عموم سكان المدينة يطلقون ألسنة الشكر مثنين على همة الآباء المرسلين الذين لم يألوا جهدهم في خدمة المرضى مدة عدوى الهواء الاصفر التي فشت في تلك السنة في المدينة وبعض انحائها فكان المرسلون وراهبات القلبين الاقدسين يواصلون الليل بالنهار في عيادة المصابين وتوزيع الادوية عليهم على اختلاف طوائفهم ومللهم

وفي مساء الاحد سرنا راكبين الجياد الى حماة فوصلنا اليها بعد المغرب بساعتين فحللنا في بيت احد الروم الكاثوليك الذي تحفى بنا واستقبلنا بكل ترحاب

ولم نبت غير ليلتنا في حماة التي أجلنا زيارتها لمرة اخرى (المشرق ٥: ٩٥٣) فقمنا في سحر يوم الاثنين قاصدين حسب قسرنا على الخيل في طريق قطعناها بعد ذلك بعشر سنين فوصفنا مراحلها وقراها (المشرق ٨: ٩١٧ ٩٢٣) لا سيما خان شيخون ومعرة النعمان وسنبل وخان تومان. ولم يعرض لنا اذ ذاك ما يكدر الخاطر بل رأينا من عنايته تعالى ما جعلنا نتيمن بهذا السفر ونرجو منهُ خيراً وذلك ان اصابات الهواء الاصفر التي حدثت في جهات حمص كانت اوقعت الرعب في قلوب اهل القرى الشمالية فجعلوا حجراً على القادمين من حماة ولم يدعوهم يواصلون السفر خوفاً من بث العدوى ففي اليوم السابق لمرورنا ألقي الحجر الصحي. ومن ثم ضاعفنا السرعة لنلحق بقافلة كانت سبقتنا بيوم من حماة فدركناها قبل خان سنبل وسرنا في رفقتها الى حلب بكل امان وراحة

وفي خان سنبل جرت لنا تلك القصة المضحكة التي رويناها سابقاً (في المشرق ٨: ٩٢١) حيث اعتزلنا عن القوم تلاوة صلاة الفرض القانوني فظنَّ احد جهال القرية اننا اكتشفنا كنزاً فطلب منا بالحاح ان نقتسمهُ معهُ فردداناهُ باطف فلم يقنع وتهددنا بعدية حتى اضطرنا الامر ان ندمر بعض رجال المكان ليكفُّوا عنا شرهُ ففعلوا وابتعد وهو يزمجر ويدمدم

وفي منتصف الليل قام الركب ليسيروا على ضوء القمر وينجوا من حرّ النهار الملتهب فاحسنوا بذلك وبعد ان قضينا في سراقب ساعات الهاجرة من اليوم التالي

استأنفنا المسير الى حلب وسرينا طول الليل حتى بلغنا الشهباء في سحر يوم الخميس في ١٩ من الشهر

قد عرف قرّاؤنا ما لحلب من المآثر التاريخيّة والادبيّة والصناعيّة بعد مقالات عديدة اثبتناها في المشرق سابقاً فلا نرى حاجةً للتكرار

ولم نُطل الاقامة في حلب الّا ريثما نجد قفلاً يسير بنا الى ما بين النهرين لأنّ الطرق في تلك الانحاء خالية من الامان فاذا انفرد المسافر هوّر بنفسه في الاخطار وربّما خرجت عليه شذّاذ العرب او غوغاء الاكراد فسلبوه امتعتهُ وتهددوا حياتهُ

وكان الرؤساء تقدّموا الى احد آباء جماعتنا في حلب حضرة الاب يوسف شلفون بان يرافقني في هذه الرحلة وهو من ابناء لبنان المعروفين بالنشاط والاقدام فكان لي خير مؤنس وساعد في هذه الرحلة فاهتممنا في حلب باعداد لوازم السفر. وكان من اخصها تجهيز هيكل نقّال نستطيع ان ننصبهُ كل يوم حيثما حللنا فنقدّم عليه الذبيحة الالهيّة صباحاً ونستمطر البركات العلويّة. ثم استحضرنا ايضاً من الحكومة تذكرة تنبيّ المأمورين باشخاصنا ومقامنا ولم يكن ذلك امرًا نافلاً كما سترى

ثم جعلنا نسأل في الخانات عن زمن خروج القفل الى جهات اورفا وماردين لننضم اليه فعلمنا ان احد زعماء القوافل من الارمن الكاثوليك كان قدم من ماردين وهو يتأهب للسفر بعد ايّام. فاستدللنا عليه واجتمعنا به فاذا هو رجل مربوع القامة مفتول الذراعين على وجهه سيماء البسالة فاتّفقنا معهُ على شروط السفر. ولا بدّ هنا ان نعرّف اصحاب هذه القوافل فانّ هؤلاء ليسوا كالمكارين في الشام او لبنان يرتزقون بضنك العيش ويشتغلون مع دابّة او دابّتين. وانّما هم غالباً رجال اصحاب مال واسع ولهم تحت امرهم عدّة عمّال يرافقونهم ويملكون عدداً كبيراً من الدوابّ لنقل محصولات البلاد من قطر الى آخر. وهم يدعون القفل كِرواناً ويطلقون على المكارين اسم القطرجيّة او القاطرجيّة. واذا رأيت هؤلاء المكارين ولا سيما شيخهم في بيوتهم احتسبتهم من وجوه القوم وذوي الحال الواسعة امّا اذا حان وقت سفرهم فيلبسون ثياب السفر الدافئة في الشتاء الخفيفة في الصيف وعلى رؤوسهم اللبد. وفي ارجلهم الاحذية الغليظة وهم مدجّجون بالاسلحة ليدافعوا عن نفوسهم واموالهم ويردّوا غارات اهل البادية. واذا حان يوم سفرهم يخرجون من البلد

برونق فتسير دوابهم بنظام وهم يعلقون على اعناقها ولباتها وقطريها واذنابها الجلاجل والاجراس يُسمع لها اصوات مرنّة وجلبة عظيمة من مسافة بعيدة فيأخذ اللصوص حذرهم لتوهمهم بشدّة القتل وكثرة الركّاب. ويمشي الركاب مع هذه القوافل يحتمون بحمى اصحابها ويخرج اهل البلد لوداعهم حتى ارباض المدينة فيكون لخروج القتل مشهد مهيب

وكان موعد سفر قتلنا في ٢٤ ايلول فقضينا الأيام الباقية لزيارة الاصحاب وفحص بعض المكاتب العموميّة والخصوصيّة في حلب بل امكننا ان نقتني جانباً من المخطوطات النصرانيّة والاسلاميّة وحلب في مقدّمة المدن التي عُنيت بالعلوم والآداب في القرون الوسطى وفيها ابتدأت النهضة الادبيّة الجديدة التي تعمّ اليوم مدن الشام كما بيّنا ذلك في مقالتين نشرناهما سابقاً في المشرق (٩ : ٦٢٩، ٦٩١) ولعلّ الثلث من مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة قد حصلنا عليها في الشهباء

وفي صباح اليوم الموعود قمنا لسفرنا وكان يوم الثلثاء وفيه واقع عيد سيدة القذاء فجعلنا هذه الرحلة تحت حماية البتول لتبارك ذهابنا وايابنا. والحقّ يقال انّ أملنا في مراحمها لم تخب اذ وافق سفرنا حلول تلك الاضطرابات العظيمة والمذابح الهائلة التي اجرت الدماء سيولاً على طريقنا وكادت تذهب بحياتنا غير مرّة لولا عناية خاصّة منهُ تعالى

٢ من حلب الى الفرات

يقطع القتل الطريق الفاصلة حلب عن الفرات نازلها بستّة او سبعة أيام وتنيف المسافة بين المدينتين على مائتي كيلو متر والسير الى الرها في صحاري مخصبة قفراء ليس فيها سوى بعض القرى الحقيرة يسكنها قومٌ من التركمان او بعض اهل المدر من العرب. ووجهة الطريق من حلب الى الفرات شمالية شرقيّة ثم تعطف الى الشرق

كانت مرحلتنا الاولى الى (جوبان بك) والمرحلة عندهم تختلف بين ست ساعات وعشر ساعات وهم يدعونها القوناق. ففي هذا اليوم الاوّل تعرّفنا برفقتنا وهم نحو عشرين رجلاً منهم نصارى ومنهم مسلمون وكلهم يؤلفون في هذه الاسفار جمّاً واحداً وعائلة واحدة يؤدي بعضهم لبعض الخدم التي يعتادها الاصحاب واذا ركبوا تبادلوا عبارات الوداد وساروا معاً وربّما تناشدوا الاناشيد المطربة والاغاني

البهجة لاسيما في سُرى الليل لئلّا يغلب عليهم النوم فيدهمهم عدوّ راصد لهم وراء الصخور او الشجر . ومنهم من يقصّ القصص على رفقته وبالاخصّ زعماء القافلة الذين يروون للركاب تفاصيل اسفارهم في جهات الشرق كالارمن والعراق والاناضول فتنتهي الساعات والاذان مصغية الى اخبارهم دون ان يجد الركاب مللاً من حديثهم . واذا انجزهُ الواحد خلفهُ غيرهُ الى ان يبلغوا نهرًا او قرية فيستريحون هنيهة او ياكلون اكل الغداء دون ان يحلّوا دوابهم ثم يستأنفون السير حتى يؤدي بهم الى منزل الليل

وهم عادة في هذه البراري يحلّون في جوار قرية حيث يجدون علفاً لدوابهم وماء شروباً . واذا عوّلوا على صرف الليل في مكان انزلوا الحمولة عن الدواب ونسقوها فوق بعضها على شكل تربيع واسع او دائرة فينزل الرَّكب في الوسط ويفرشون فيه امتعتهم للنوم اما الدواب فيربطونها باوتدة في خارج المربّع ويتركون عليها اجراصها حتى اذا سرقها لصّ سمعوا صوتها فقاموا الى السارق وهزموهُ . اما اذا وجدوا خاناً في بعض القرى فيفضلونهُ لراحتهم وراحة دوابهم وذلك باجرة معلومة

وكثيرًا ما يقتسم الركّاب بينهم مآكلهم . واذا وُجد مَن يُحسن الطبخ اعدّوا طبيخاً ياكل منهُ جميعهم على حساب الركاب كلٌّ بنوبته . واهل القرى ينتهزون فرصة مرور تلك القوافل ليبيعوهم شيئاً من مالهم . وليس لديهم غالباً سوى قليل من خبز الشعير والبيض واللبن

وجوبان بك مرحلتنا الاولى لا تزيد على عشرين الى ثلاثين بيتاً مقبباً وبقربها خيم يتزلها العربان . واذ رآنا اهلها اقبلوا الينا في اسالهم وحسبونا من اطبّاء الفرنج فجعلوا يطلبون منّا الادوية لمرضاهم فاحسنّا اليهم بشيء مما كنّا اخذناهُ لحاجتنا كالكينا وبعض السفوفات والمراهم . وقد تكرّر علينا ذلك في بقيّة سفرنا . فكان اولئك الساكنين يحملون ثقتهم فينا ويجيئونا باولادهم فكنا نسلّيهم ونشير اليهم بالصلاة وبوضع رجائهم في الطبيب العظيم الذي يشفي كل بؤس ووجع او ندفّم على الادوية البسيطة والوسائل الصحيّة القريبة التي تفضل على الادوية فكانوا يبتعدون راضين بهذه النصائح . وعرفنا من ثمّ كم هي رفيعة رتبة الطبيب في البلاد الداخليّة حيث لا يجد المسقومون من يعالج امراضهم

وفي اليوم التالي سرنا الى الشمال فقطعنا نهر الساجور احد روافد الفرات واصلهُ

مدينة البيرة او بيه جيك وقلعتها الشرقية على الفرات

من جهات عينتاب وكان مسيرنا في منتصف الطريق فعن شمالنا كلس ثمَّ عينتاب ومرعش وعن يميننا منبج وكلها مدن شهيرة لاسيما مرعش ومنبج. وكانت منبج قديماً حاضرة لعمل روماني كبير يُعرَف بالمعاملة الفراتيَّة ويدعون منبج بالمدينة المقدَّسة (ايرابوليس) وكان فيها معبد للشمس كجملبكّ وبقيت منبج في أيام العرب زاهرة تكثر فيها الانسجة الشهيرة بالمنبجانيَّة او الانبجانيَّة (راجع المشرق ١٤ : ٨٠)

وفي مساء ذلك النهار نزلنا في قرية وسطى تُدعى بزنبور فيها مسجد صغير وخان للقوافل وفي لغة اهلها شيء من الكردية لاسيما في اعلامهم فيدعون حسن « حَسو » وخليل « خَيو » ومحمد « محو » ومصطفى « مصطو » وليس بينهم من يُحسن القراءة غير الآغا وشيخ القرية. والنساء في تلك القرى مُسفرات لا حجاب لهنَّ. وكذا يقال عن سائر قرى البادية الى بغداد

ثم واصلنا السير الخميس وصباح الجمعة الى « بيره جك » فلم نزل نقطع الطريق التي مهدتها منذ اجيال متوالية ارجل الامم السالفة حتى اشرفنا على وادي الفرات فلاح لنا عن بعد ذلك النهر الجليل المتسع الضفاف الزاخر المياه فتذكرنا وصفهُ للنابغة اذ شبه بهِ كرم النعمان فقال :

فما الفراتُ اذا هبَّ الرياحُ لهُ ترمي اواذيُّهُ العبرَيْنِ بالزَّبَدِ
يمدُّهُ كلُّ وادٍ مُترَعٍ جَبِبٍ فيهِ ركامٌ من اليَبروتِ والخَضَدِ
يظلُّ من خوفهِ الملَّاحُ مُعتصماً بالخَيزُرانةِ بعد الأين والنَّجَدِ
يوماً بأجودَ منهُ سَيبَ نافلةً ولا يحولُ عطاءُ اليومِ دون غدِ

فاسرعنا منحدرين اليهِ لنروي ظمأنا من مائهِ العذب الفرات كاسمهِ وبقينا ساعةً نمتع العيون بسنيهِ فنراه كسيدٍ مهيب يجري بكل هدوءٍ ورزانة لا تكاد البادرة تميز جهة انحدارهِ. وكم مرَّت عليهِ من القرون وشاهد من الحوادث منذ كان يسيل في جنَّة عدنٍ فحضر تسبيح الابوين الاوَّلين لخالقهما بعد ان كوَّنهما بكلمتهِ الحيَّة ثم مدَّة الاجيال التالية حيث التحمت على جوانبهِ تلك الحروب المرعبة فطحنت امماً وسحقت دولٌ حديثةٌ دولًا قديمة فقامت مقامها منذ عهد الكلدان والبابليين والاشوريين والماديين الى اليونان والرومان والعرب والترك حتى واقعة تيمور او نصيبين البلدة القريبة من بيره جك في غربيها وهناك انتصر ابراهيم باشا على جيوش

الدولة العثمانيَّة في ٢٤ حزيران سنة ١٨٣٩ وتهدَّد استقلال تركيَّا فعارضتهُ الدول وردَّتهُ فارغاً الى قطره المصري بعد مدَّة

فكلُّ هذه الوقائع قد شاهدها الفرات وهو هو لم يزل يخصب البلاد التي يمرُّ بها على طول مجراه من اواسط بلاد ارمينيا حيث ينابيعهُ الى شطّ العرب وفيهِ ينضمُّ الى دجلة فيسيران ممتزجين الى ان يصبَّا في خليج العجم. والفرات في الجزيرة بمثابة النيل في مصر فانَّهُ في ايدي الشعوب التي احسنت التصرُّف بهِ وقدَّرتهُ قدرهُ كان كنزًا ثميناً لا تنفد ثروتهُ وكفى دليلًا عليهِ مُدُن لا تحصى كانت تزدان من مواردهِ كسيفاط وقلعة الروم والبيرة والرقَّة ودير الزور وكان اذا بلغ الى جهات بابل احيا اقطار البابليين كما كانت دجلة تخصب وتحيي بلاد الاشوريين. وكانت قنيّ عديدة تُرى آثارها حتى اليوم تستمدُّ شيئاً من مياههِ فتسقي بقاعاً تُوازي ثمرها بمبتدي ضعف حتى ٣٠٠ ضعف كما شهد عليهِ قدماء المؤرخين

غير انَّ هذه الاحوال قد تغيَّرت في الاجيال الاخيرة واصبح الفرات وشقيقتهُ دجلة كنزين مدفونين لا يأتيان بجزء في المئة من منافعهما. فعسى دولتنا الدستوريَّة تسدُّ هذا الخلل قريباً وتستدرك هذا الخسران فتُخرج الى حيز العمل مشروع الريّ الذي قدَّمهُ الانكليزي ويلكوكس ونمتح امتيازًا لشركة تُسرع الى اجرائهِ مع توسيع قعر النهر في بعض الامكنة لتسير فيهِ السفن البخاريَّة وليس ذلك من الامور العسرة البالغة النفقات

تلك كانت الافكار التي تدور بنا خلدنا في تلك الساعة ونحن في انتظار القوارب التي يُقطع عليها النهر. فما لبثت ان اقتربت الى الشاطئ حيث كنَّا قاعدين فركبناها نحن ودوابَّنا بحمولها. وهذه القوارب على شبه هذاء كبير لا ذيل لهُ ولا عقب اذا اتَّصلت بالبرّ لا يصعب على الدوابّ نفسها ان تدخلها وفي اعلاها ملَّاح في يدهِ بخذاف طويل يتكزهُ في قعر النهر فيتحرَّك القارب الى ان يبلغ الضفَّة الاخرى. وعرض النهر في الصيف لا يزيد عن ١٢٠ مترًا امَّا في وقت الشتاء فيصير كالبحر ويبلغ عرضهُ الف متر وازيد

٣ من الفرات الى الرها

ومعبر الفرات في هذا المكان من المعابر الشهيرة منذ قديم الزمان وكان اليونان

يدعون المدينة التي بقربه العبر (Zeugma) وكانوا حصّنوها في وجه العدوّ ليسدُّوا في وجهه معبر النهر. بل جاء في خرافات اليونان انّ الاله باخوس اوّل من مدّ جسرًا في هذا المكان لمّا سار من بلاد اليونان ليفتح ممالك الهند. والمرجّح ان باني المدينة احد ملوك العجم من دولة بني ارشك فدعاها بيرثا. ولمّا وقعت هذه المدينة في ايدي العرب سمّوها البيرة ورمّموا حصنها المنيع الذي تُرى منهُ حتى اليوم بقايا صالحة. وفي اواخر القرن الرابع عشر اخربها تيمورلنك. ثم استولى عليها الاتراك فدعوها « بيره جك » وهو اسمها الآن

والمدينة الحالية في لحف القلعة على منعطف تلّ يتحدّر كالدرج. واهلها نحو ١٢,٠٠٠ نفس اكثرهم مسلمون يتكلّمون بالتركيّة وبينهم نحو الف ارمني غريغوري و٥٠٠ ارمني كاثوليكي. وبعد مرورنا بشورين قُتل كثيرون من ارمن بيره جك. وفي المدينة عدّة جوامع اخصُّها « علو جامع » اي الجامع الكبير وهو قديم حسن الهندسة. وفيها اربع كنائس وثلث مدارس ابتدائيّة وللكاثوليك منها كنيسة ومدرسة. وتحدق بالمدينة الاشجار والمزدرعات وكان لها سور خرب اكثرهُ كالقامة وفي جوارها مياه معدنيّة يُستحمُّ بها

وبيره جك مركز احد الاقضية الداخلة في سنجق اورفا منها قضاء « روم قلعه » في شمالها حيث كانت قلعة حريزة شادها الروم على الفرات فاضحت مدينة وكثر اهلها وكان يقيم فيها جاثليق الارمن الى ان استولى عليها الخراب واليوم في مكانها بلدة تُدعى خلفت فيها مركز القائمقام. ومنها قضاء سروج باسم مركزها سروج وهي مدينة عريقة في القدم ذات شأن عظيم كان القدماء يدعونها بطنة وفيها وُجدت آثار جليلة من عهد الاشوريين. وفي جنوبي البيرة ليس بعيدًا منها عند مصب الساجور في الفرات بلدة صغيرة تُدعى جرابيس وفي جوارها وجدوا قبل ٣٠ سنة اخربة مهمّة تحقّقوا انّها بقايا قرقميش حاضرة الدولة الحثيّة الشهيرة في تاريخ الحروب الاشوريّة

وكان مقامنا في البيرة في خان واسع مشرف على المدينة وارباضها فكان مساؤنا هنيئاً منعماً والهواء رطباً منعشاً واجتمعنا ببعض اهل البلد فانسنا بمشاهدتهم وافادونا شيئاً من احوالهم

وقنا قبل سحر اليوم التالي السبت ٢٨ ايلول لنقطع مسافة طويلة ونتمكن من الوصول الى اورفا صباح الاحد وبين بيره‌جك واورفا ٩٩ كيلومترًا اي ٢٠ ساعة. فمشينا في ذلك اليوم عشر ساعات متوجهين الى الشرق. وبعد ان اجتزنا الجبال المكتنفة بالبيرة دخلنا في بقاع ما بين النهرين المخصبة ونزلنا وقت العصر عند خان كبير مبني بالحجارة المنحوتة الضخمة يُدعى « جهار ملك » اي الملوك الاربعة. ويزعم النصارى انّ هذا البناء يرتقي الى عهد الملوك المجوس وانّهم كانوا اربعة فدُعي الخان باسمهم المذكور. وليس الامر كما يزعمون والخان من ابنية القرون الوسطى كما يظهر ولعلّ اسمه يشير الى ملوك نزلوا فيه او ابتنوهُ لمأوى القوافل. وبقربه جدول ماء يسقي تلك الانحاء. ويشرب منهُ الزرّاعون الذين هناك

ولمّا حللنا الرحل انتهزنا الفرصة لاقامة صلاتنا عند الاشجار التي تظلّل مجرى المياه واذا برجل هناك حسن اللبس وضيء الهيئة اقترب منّا وطلب دواء يعالج به امرأتهُ ليزيل عقمها فاشرنا اليه بالصلاة الدواء العظيم لمثل هذه الحاجات مع الاحسان الى الفقراء. وصرفناهُ بلطف

كان اليوم التالي يوم الاحد وفيهِ عيد الملاك ميخائيل فألححنا على رفقتنا واقنعناهم بان يقوموا نصف الليل لنبلغ الى الوها في ضحى النهار ونقدّم القداس الالهيّ في كنيسة الآباء الكبوشيين فاجابوا الى ملتمسنا. وما كنّا قطعنا ميلًا من الخان واذا ببعض اللصوص كمنوا لنا وراء تلّ هناك وحاولوا ان ينهبوا القفل الّا انّ اصحابنا شعروا بهم فنادى بعضهم بعضًا واطلقوا بنادقهم الى جهة المتلصصين. اما نحن فطلبنا شفاعة رئيس الملائكة ميخائيل في يوم عيده فما تأخر عن مساعدتنا فارتمع الرعب في قلوب اللصوص الذين رأوا هاربين وظنوا ان عددنا غفير جدًا فلا طاقة لهم بنا

وقد تذكرنا وقتئذٍ ما حلّ في هذه الامكنة عينها برسلَين يسوعيين وهما السيد مبارك بلانشه (M^gr B. Planchet) القاصد الرسولي على ما بين النهرين والاب يوسف لابورد (P. J. Laborde) وذلك في اواسط تشرين الثاني من السنة ١٨٥٩ فانهما اذ كانا سائرين مع القفل من ديار بكر الى سويرك طلب السيد بلانشه ان يستريح قليلًا لنوبة من الحمى اصابتهُ في الطريق فسبقهُ القفل وبقي وحدهُ في رفقة الاب لابورد واذا بقوم من الاكراد هجموا عليهما وسلبوا كل ما لهما

وضربوهما بالسيوف والحجارة وتركوهما على آخر رمق. ولما عرف رفقتهما ما جرى لهما حملوهما الى سويرك حيث توفي السيد بلانشه اما الاب لابورد فشفي باعجوبة من العذراء مريم التي ظهرت لهُ وأبرأت جراحهُ فقام من ساعتهِ معافى

وبعد مسير ست ساعات عند طلوع الشمس وجدنا في طريق محجرة كانت تمرُّ بين تلال وصخور. وكنا نرى فيها المغاور والكهوف المنحوتة التي كان يسكنها السيَّاح وعبَّاد النصارى في قرون النصرانيَّة الاولى أما جارى رهبان ما بين النهرين غيرة رهبان الصعيد فزهدوا بالدنيا وانقطعوا الى امور الآخرة

وكان وصولنا الى الرها في ضُحى النهار فتركنا القفل في خارج البلد وقصدنا دير المرسلين الكبوشيين الذي رحَّبوا بنا واستقبلونا استقبال الاخوان ولم يدخروا وسعاً في سبيل خدمتنا مدَّة اقامتنا عندهم فتحققنا قول النبيّ داود: « ما اطيب وما الذّ ان يسكن الاخوة معاً » وهو امر اختبرناهُ مدَّة رحلتنا كلها عند كافة المرسلين الذين نزلنا عندهم من اي رهبانيَّة كانوا فلا يسعنا الَّا الشكر على لطفهم وكرم طباعهم وحبهم الاخوي طالبين من ابي المواهب ان يجازيهم خيرًا عن صنعهم (يتبع)

من أعلى منارة بيروت

للاديب سليم البستاني احد طلبة كليتنا

تبارك صُنعُ الله في البرّ والبحرِ ... ألا فاحمدوا الرحمنَ بالنظم والنثرِ
تباركَ من ذرّ الكواكب في العلى ... وزان أديم الارض بالحُلَل الخضرِ
اذا سكتت عن حمدهِ ألسنُ الورى ... تُسبّحهُ الاكوان في السرّ والجهرِ
لقد شاقني رقصُ الطبيعة في الضحى ... على نَغم الاطيار في جنَّة البشرِ
اذا حدَّثتني النفس ان اقصد الربى ... فلم أرَ للإحجام وجهاً من العذرِ
صعدتُ الى اعلى المنارة ناظرًا ... الى ما حواهُ الكون من طُرَفٍ غُرَرِ
رحلتُ في جوّ الخيال بفكرةٍ ... بلغتُ بها شأوًا يعزّ على النسرِ
وسرّحتُ طرفي في البريَّة فانثنى ... يُردّد آياتِ المهيمن بالشكرِ
سبى مُقلتي لبنانُ مُنيةُ مهجتي ... فأسكرني والفخر يغني عن الخمرِ